غسيل المخ

كيف يغيب العقل ومتى ؟!

دكتور

نبيل راغب

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت: ٣٥٤٢٠٧٩
فاكس : ٣٥٥٣٤٤٢

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩١٧٩٥٩

مقدمة

غسيل المخ من القضايا أو المصطلحات الحافلة بالكثير من الغموض والإثارة، برغم إمكان تداولها على الألسنة بين الناس فى حياتهم . وتزداد عناصر الغموض والإثارة عندما يدرك هؤلاء الناس أن عمليات غسيل المخ لم تعد قاصرة على أهدافها التقليدية فى مجال توجيه الفكر والسلوك الإنسانى للفرد الحر ضد إرادته وعقله ، مستخدمة فى ذلك وسائلها المتعددة فى سلب إرادته وغسل مخه ، ثم شحنه بأفكار مضادة لتلك التى كان يعتنقها ، مما يترتب عليه سلوكيات مناقضة لما كان يتبعه من قبل . فقد كان هذا هو الأسلوب التقليدى الذى تتبعه السلطات وأجهزة المخابرات فى مختلف بلاد العالم ، شرقيه وغربيه ، خاصة فى فترات الطوارئ والحروب والصراعات المختلفة .

لكن مع التطورات الضخمة التى تحققت فى مجالات علم النفس والاجتماع والإعلام والدعاية والإعلان والتعليم والسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا ، بل والفسيولوجيا والبيولوجيا ، فإن مجالات غسيل المخ اتسعت وتعمقت حتى كادت أن تشمل معظم جوانب الحياة اليومية سواء على المستوى الفردى أم المستوى الجمعى ، فقد أصبح عقل الإنسان عرضة لعدد لا يحصى من المؤثرات المباشرة وغير المباشرة ، الواعية وغير الواعية ، العامة والخاصة ، الرسمية والشعبية ، بحيث يصعب القول بأن الإنسان هو سيد موقفه وهو على مشارف القرن الحادى والعشرين ، بل إن بعض المفكرين قد بلغ به التشاؤم حداً جعله يصرح بأن إرادة الفرد الحر قد أصبحت وهماً لأن مخه يتم غسيله أولاً بأول من كل الأطراف المعنية، وأن ما يتوهمه أنه أفكاره وأوهامه وآراؤه الأثيرة هو فى حقيقة أمره أفكار وآراء صنعت خصيصاً له ، وتم شحن عقله به وهو يتصور أنها من بنات أفكاره . وحتى القائمين بعمليات غسيل المخ سواء أكانوا أفراداً أم مؤسسات ، هم بدورهم عرضة لغسيل المخ من أطراف أخرى ، أى أن غسيل المخ أصبح دائرة جهنمية أو

سلسلة متصلة الحلقات من التأثير والتأثر المتبادلين ، وإن كانت نسب فاعليته تتراوح بين شخص وآخر ، وموقف وآخر .

وكان السبب فى تأليف هذا الكتاب ، ظاهرة جديرة بالالتفات والتحليل ، وتتمثل فى أن انتشار عمليات غسيل المخ على مستويات كثيرة وتأثيرها العميق فى حياة الأفراد والمجتمعات ، لم يؤديا إلى دراسات مستفيضة ومركزة فى هذا المجال ، فإنه – على حد علمنا – لا يوجد فى المكتبة العربية كتاب متخصص ينير الجنبات المظلمة والغامضة والمثيرة لعمليات غسيل المخ . أما فى المكتبة الأجنبية فإن الكتب التى تناولت هذا الموضوع فى الربع الأخير من القرن العشرين ، قامت بتحليله ضمن موضوعات أخرى مثل قابلية الإنسان للتشكيل والصياغة ، ومحاولات برمجة البشر والحيوانات ، واكتشافات الهندسة البشرية والوراثية ، وبرامج التحكم فى أمزجة الجماهير وأيضاً فى ذكاء الفرد ، وتغيير الشخصية الإنسانية ، والاستحواذ التام على الجماهير ، ومحاولات إنتاج السوبرمان ، ومنهجة السلوك الإنسانى ، وصياغة اتجاهات الرأى الخاص والعام ... إلخ . لكن هذه الكتب لم تفرد كتاباً خاصاً بموضوع غسيل المخ .

فى مقدمة هذه الكتب كتاب جون واطسون « النظرية السلوكية » ، وكتاب ستيفن ريتشارد سون « تأثير البيئة على الذكاء » ، وكتاب « عصر الإعلان » لمجموعة من المؤلفين ، وكتاب روجر ستروجان « تعليم الأخلاق للأطفال » ، وكتاب بيتر راى « الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى » وكتاب وليم بينز « الهندسة الوراثية » ، وكتاب م . هـ . كنج « التغذية فى البلدان النامية » ، وكتاب توماس أ. هاريس « التوافق النفسى » ، وكتاب فانس باكارد « صائغو البشر » ، بل ورواية دونالد بن« سلوك كاندى جونز » ، وغيرها من الكتب التى تناولت غسيل المخ من الناحية التى تهم موضوعها فحسب . لكننا – على حد علمنا – لم نجد كتاباً متخصصاً فى هذا الموضوع الغامض والمثير والخطير .

من هنا نشأت فكرة تأليف هذا الكتاب حتى يلم القارئ العربى بأبعاد عمليات غسيل المخ ، وكيف يغيب العقل ومتى ؟! إذ إنه برغم الأمواج المتلاطمة لغسيل المخ فى المجتمع ، فإن الإنسان الواعى ، والناضج فكراً وسلوكاً ، لا يزال قادراً - إلى حد ما - على التفكير المستقل والرؤية النقدية والمنهج التحليلى الذى يجنبه الإصابة بالتشويش والتشتت والضياع ، بحيث لا يسمح لنفسه أن يصبح فرداً فى قطيع لا يعرف من أين أتى وإلى أين سيذهب ؟!

إن العقل هو أعظم هبة منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، والبوصلة التى تهديه سواء السبيل بين أمواج الحياة الهادرة والمتلاطمة ، ويوم يفقد القدرة على تنمية هذه الهبة أو استخدام هذه البوصلة ، فإنه بالتالى يفقد إنسانيته ذاتها ، وهذا الكتاب بمثابة نافذة مفتوحة على كل عمليات غسيل المخ وأساليبه وحيله وخدعه ومستوياته ومجالاته المنتشرة فى شتى بلاد العالم المعاصر ، بصرف النظر عن اختلاف الأنظمة السياسية التى تحكمها ، بحيث يدرك القارئ العربى أن أى تلاعب بعقله هو استهانة بكيانه الإنسانى ككل ، ولذلك تناولت فصول الكتاب الستة مفاهيم وقضايا وعمليات غسيل المخ بالدراسة التاريخية والعلمية والتحليلية التى ألقت الأضواء على الوسائل والغايات التقليدية لغسيل المخ ، وعلى عنصر الإيحاء بصفته الأداة الرئيسية والمتطورة والمتشعبة فى هذا المجال ، ثم عالم الدعاية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية والفنية ، ثم أساليب الإعلان التى تسعى لغسيل مخ كل من يتعرض لها ، ثم عمليات التنويم المغناطيسى التى لم تعد قاصرة على فترات التنويم الفعلى بل يمكن ممارستها فى أشد حالات اليقظة عند الإنسان . ثم يأتى الفصل الأخير فى هذه الدراسة ليثبت قدرة عمليات غسيل المخ على استيعاب أحدث التطورات العلمية كما تتمثل فى الهندسة الوراثية أو الهندسة البشرية التى جعلت من المخ البشرى مجالاً للتلاعب بوظائفه وخصائصه التى فطرعليها ، وهى الظاهرة الخطيرة التى أصبحت تهدد الإنسانية جمعاء بالانحراف بعيداً عن مسارها الذى خلقت له .

إن غسيل المخ هو القضية الملحة والخطيرة فى هذا العصر ، وهو قضية مصيرية لا يمكن أن نمر عليها مر الكرام ؛ لأنها يمكن أن تفرض نفسها على كل مراحل بناء الإنسان بحيث يمكن أن تبث فيه العزيمة والإرادة والتنوير والرؤية الثاقبة فترسخ من وجوده وتثبته على أرض صلبة ، وتضىء له معالم الطريق نحو مستقبل مشرق وأفق جديد ، وفى الوقت نفسه يمكن أن تبث فيه التردد والضياع والتشتت والغموض والرؤية الغائمة والإرادة الضعيفة المهتزة ، فتدمر كيانه ، وتجعل منه ريشة فى مهب الرياح . ذلك أن غسيل المخ سلاح ذو حدين ، يمكن استخدامه فى الشر والدمار وأيضاً فى الخير والعمار . وقد أصبح سلاحاً دولياً لا يقل فى خطورته عن أشد الأسلحة فتكاً فى عالمنا المعاصر ، خاصة بعد أن تحول هذا العالم إلى قرية صغيرة نتيجة لثورة الاتصالات التى جعلت من عقول البشر فى كل البقاع ساحة مفتوحة أو هدفاً أثيراً لكل السهام المسمومة التى تنطلق لتصيب أهدافها فى لمح البصر وعلى مدار ساعات النهار والليل بلا هوادة أو رحمة، كانت الأسلحة المادية التقليدية – بما فيها القنبلة الذرية – تدك الحصون أو القلاع أو المدن أو الجيوش أو التجمعات البشرية المحدودة مهما كبر عدد أفرادها، وفى أزمنة الحروب فحسب، أما الآن فتدك الأسلحة المعنوية غير التقليدية العقول حيثما وجدت، وفى أزمنة السلم والاستقرار . فهى حرب خبيثة ومرواغة ولا نهاية لها ، بل هى فى تصاعد محموم ومتجدد ، كما لو كانت حرباً عالمية ثالثة .

لقد أصبح المخ البشرى هو الوسيلة والغاية ، هو الأداة والهدف ، هو الجانى والمجنى عليه فى حرب العقول والأفكار والآراء والتوجهات والمشاعر التى لا تتوقف ولا تهدأ ، وهى حرب الفائز فيها هو من يملك القدرة على استيعاب ألاعيبها وسبر أغوارها ، وإدراك مؤامراتها ، والصمود فى وجهها بإستراتيجيات متطورة ومرنة وذات نفس طويل بلا حدود . فالويل لمن تتقطع أنفاسه فيترك مخه نهباً لمحاولات الغسيل المتربصة به ، ويتحول إلى مسخ شائه لا وزن ولا دور له فى عالم لا يعترف إلا بالأقوياء والأذكياء والحريصين على إنارة عقولهم بكل ما هو مستحدث فى مجالات العلوم المختلفة .

ولعل هذا الكتاب يكون بمثابة خط دفاع أولى عن العقل العربى المستهدف من جميع المتربصين به . إنه يسعى – قدر طاقته – لتسليحه بالوعى واليقظة والاستنارة حتى لا ينحرف بعيداً عن أهدافه الحضارية والقومية والإستراتيجية والإنسانية .

المهندسين فى ١٨ نوفمبر ١٩٩٧ د / نبيل راغب

الفصل الأول

المفهوم التقليدى لغسيل المخ

منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى فى العقد الثانى من القرن العشرين شاع مفهوم السيطرة على معتقدات البشر، خاصة فى المجال السياسى والأيديولوجى، لإجبار الشخص على القيام بأعمال ضد رغبته أو اعتناق آراء وأفكار ضد إرادة عقله والمنطق الذى يعتنقه ، ومن يحلل مضامين هذا المفهوم المنافى لكل المبادئ والقيم الإنسانية ، يدرك أن البشر عرفوه بل ومارسوه عبر عصور التاريخ منذ أن بدأت الصراعات والمعارك فيما بينهم على الاستئثار بالسلطة والثروة وكل مظاهر السطوة . ثم تبلور أو تقنن هذا المفهوم فى مصطلح « غسيل المخ » الذى استخدمه الصحفى الأمريكى إدوارد هنتر لأول مرة عند ترجمته للكلمة الصينية «هسى ناو» التى تعنى «تعديل الفكر» . كذلك ارتبط اسم عالم وظائف الأعضاء الروسى إيفان بافلوف بعملية غسيل المخ عندما وضع نظريته فى الفعل الشرطى المنعكس التى برهن فيها على حدوث متغيرات معينة فى عقل الإنسان وفكره نتيجة لمؤثرات خارجية تعرض لها عقله أو أجبر على التعرض لها حتى ظن أنها من بنات أفكاره . كذلك أثبت وجود علاقة عضوية بين فكر الإنسان وعناصر البيئة المحيطة به والمؤثرة فيه بطبيعة الحال ، وبالتالي فإن التغيير الإرادى لأحد عناصر هذه البيئة أو بعضها أو كلها لابد أن يؤدى إلى تغيير فكر الإنسان وسلوكه . فالإنسان لا يمكن أن يعيش فى فراغ ، ولذلك فهو ابن بيئته شاء أم أبى .

والمفهوم التقليدى والشائع لغسيل المخ يصفه بأنه أية محاولة تستخدم لتوجيه الفكر الإنسانى أو العمل الإنسانى أو السلوك الإنسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد إرادته وعقله ، أى بعد سلب إرادته وغسل عقله لشحنه بأفكار وتوجهات جديدة ، وعادة ما تكون مضادة ومنافية للأفكار والتوجهات السابقة التى كان يعتنقها ويؤمن بها بمحض إرادته . وتوضح لنا أحداث التاريخ ومواقفه أن الإنسان عرف عمليات غسيل المخ منذ أقدم العصور ، خاصة فى مجال استخلاص الاعترافات من الأعداء والخصوم والأسرى والضحايا . بل إن أهم مرحلتين من مراحل غسيل المخ كانتا من الممارسات التقليدية فى هذه العملية منذ أن أدركها الإنسان . المرحلة الأولى وتتمثل فى استخلاص الاعترافات من الشخص المستهدف بطريقة أو بأخرى ، بحيث يدلى بكل ما يعتنقه من أفكار ، وبكل ما شارك فى صنعه من أحداث ، وبكل ما يعرفه من معلومات ، وبكل ما عاينه من مواقف وشخصيات . ثم المرحلة الثانية التى تبدأ بإعادة تعليم مثل هذا الشخص وتثقيفه وتقويم فكره ، وعليه أن يستسلم لكل هذه الخطوات أو يتظاهر على الأقل بذلك ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور فى انتظاره .

وغسيل المخ لا يمارس على الأعداء والخصوم والأسرى فحسب ، بل يمارس أيضاً على أبناء الوطن الذين يشكلون مصدر قلاقل ومتاعب للأنظمة الحاكمة ، أو من المتوقع أن يصبحوا كذلك . ومن هنا كانت ضرورة أن تسيطر السلطات على الظروف المحيطة بالحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية للفرد أو للجماعات بهدف إحلال أفكار وتوجهات ومعتقدات تختلف عما يعتقده الفرد ، بحيث تمتلك السلطات بيدها عنصر المبادرة فى تنمية الطاعة وتعميق الإخلاص لعقيدة معينة من خلال القضاء على ولاء المواطن لأى فرد أو جماعة ، وذلك بإقناعه بشتى الوسائل السياسية والإعلامية والثقافية ، بأن معتقداته غير صحيحة ، ومنافية للمنطق السليم ، ويمكن أن تورده موارد التهلكة ، ولذلك يتحتم عليه تغييرها بإحلال المعتقدات والأفكار الجديدة محلها .

وقد نادى دعاة حقوق الإنسان بأن عملية غسيل المخ هى فى حقيقتها قتل أعظم هبة منحها الله للإنسان وهى العقل ؛ فهى تضعه تحت رحمة سطوة مهدرة لكيانه وكرامته وكبريائه بل وحياته نفسها إذا كان يمتلك من الصلابة والصمود ما يمكنه من الحفاظ على وعيه ويقظته فى مواجهة كل محاولات تغييب عقله . ذلك أن من أولويات غسيل المخ تحطيم إرادة الشخص المستهدف حتى يتحول إلى كيان آلى أو ألعوبة فى يد من قام بغسل مخه ، وبالتالى يصبح خاضعاً لإرادته تماماً تمهيداً لإعادة تعليمه وبرمجة عقله المغسول بأفكار وتوجهات ومعتقدات جديدة تحل محل السابقة ، وبذلك يتقمص شخصية جديدة ونظرة مختلفة ليسلك على أساسها فى حياته الجديدة . وهذا يعنى إمكان توجيه الفكر الإنسانى أو السلوك الإنسانى ضد الإرادة الحرة للفرد ، وبالتالى إهدار كيانه فى الصميم .

وإذا كان الوهم يعتبر من المجالات المرضية التى تناولها التحليل النفسى بالدراسة والعلاج ، فإن غسيل المخ قد تجاوز هذا المجال المرضى إلى إيجاد واقع فعلى جديد يعيشه الشخص المستهدف . فهو انتقال من واقع قديم إلى آخر جديد مع تحطيم كل الجسور التى يمكن أن تصل بينهما . وهذا أخطر بكثير من مريض الوهم الذى يمكن معالجته بإخراجه من سطوته بحيث يضع قدميه على أرض الواقع الصلب مرة أخرى . أما ضحية غسيل المخ فإنه قد يضع قدميه على واقع جديد أكثر صلابة ورسوخاً من واقعه القديم الذى عجز عن جذبه إليه بقوة ، وقد يصبح أكثر تعصباً له والتزاماً به من الذين دفعوه إليه عبر مراحل غسيل المخ. وخاصة أن الأساليب الحديثة لغسيل المخ قد تعددت وتطورت بتوظيفها علوم النفس والاجتماع والسياسة والدعاية والثقافة ، بحيث تضاءلت نسبة القادرين على الصمود فى وجهه والنجاة منه .

وتنهض عملية غسيل المخ على عدة أساليب شائعة أو تقليدية ، بحيث يتم اختيار الأسلوب أو الأساليب التى يمكن أن تقضى على كل مقاومة للضحية . منها على سبيل المثال عزل الشخص تماماً عن الحياة العامة ، وذلك من خلال الزج به

فى زنزانة منفردة ، كئيبة ، معتمة ، ذات باب حديدى مقفل ، وغالباً ما تفتقر إلى نافذة يتسلل منها شعاع الشمس أو ضوء النهار . وإذا كان الإنسان مخلوقا اجتماعيا بطبيعته ، فلنا أن نتخيل مدى الصدمة التى يمكن أن تزلزل كيانه عندما يجد نفسه وقد بترت تماماً عن الحياة خارج هذه الزنزانة ، عندئذ يصبح عقله نهباً لكل أفكار الرعب والفزع التى تهاجمه بلا رحمة ولا هوادة ، خاصة عندما يترك مصيره معلقاً مدة طويلة دون توجيه أى اتهام محدد له ، مما يلقى به فى غياهب المجهول الذى لا يعرف لنفسه حدوداً للرعب والفزع ، وهو فى الوقت نفسه لا يعرف أية أخبار عن أسرته أو العالم الخارجى ، فيتحطم تلقائياً دون محاولات مباشرة لتعذيبه جسدياً . فليس من السهل احتمال ضغوط القلق والأرق والخوف والضيق والاكتئاب دون أن يصاب الإنسان بالأمراض الجسدية المترتبة على هذه الأزمات النفسية التى لا تريد أن تنقشع ، فعندما تكل النفس والجسد ، يفقد القدرة على التفكير الواضح المتسق ، وتشرع القيم والمبادئ والمثل التى عمل من أجلها فى الاختفاء خلف أفاق ملبدة بالغيوم ، فيعجز عن التمييز بين أحداث ماضيه ، ومواقف حاضره ، واحتمالات مستقبله .

وبمضى الوقت برتابته الرهيبة وملله القاتل ، يبدأ فى الشعور بأنه لم يعد هناك من يبحث عنه أو يهتم به ، وأن الجميع قد تخلوا عنه ، حتى خوف أسرته عليه لم يعد ذا قيمة عملية لأنه لم يأت بأية نتيجة إيجابية . ويشرع فى الدخول فى مرحلة أصبحت فيها كل الأمور تستوى . عندئذ يبدأ الاستجواب الذى يعتبر المرحلة الثانية فى غسيل المخ بعد مرحلة الصمت والقطيعة التى سبقت لإعداده نفسياً بعد أن يكون قد فقد معظم قدرته على اليقظة والمقاومة . ومن أشهر الأساليب التى تستخدم مع المسجونين السياسيين بصفة خاصة ، الإيحاء إلى السجين بأن بلاده التى عرض حياته للخطر من أجلها ، لم ترفع صوتاً واحداً من أجله ، ولم تتخذ أية خطوة عملية للإفراج عنه ، كأنه لم يكن ، مما يجعله ضحية لإحساس قاتل بالوحدة والضياع الذى يشعره بأن كيانه كله قد تحول إلى ريشة

فى مهب الرياح ، وأنه لم يعد لديه ما يقاتل من أجله ، فينقاد إلى الاستجواب مسلوب الإرادة ، محطم الكيان ، مشتت العقل تحت وطأة أشد الظروف قسوة وعنفاً ؛ إذ يمكن أن يتصور أن بلاده نفسها قد خانته بدليل أنها لم تعبأ بتضحيته ولم تسع لإنقاذه . ويحكى التاريخ أن بعض هؤلاء المسجونين السياسيين قد حاول الانتحار بأي أسلوب يمكن أن يتاح له ، مثل تسلق سور السجن وإلقاء نفسه منتحراً وهو فى طريقه إلى الاستجواب، أو معرضاً نفسه لرصاص الحرس، مما يدل على أن وطأة المحنة التى يمر بها أشد من الانتحار أو مواجهة الرصاص .

ومن أساليب غسيل المخ الأخرى تعريض الشخص لكل أنواع الهزال الجسدى من خلال حرمانه من الطعام والشراب والنوم ، ولا مانع من تقييده بالأغلال لتحطيم أية بوادر للصلابة والصمود قد تبدو منه . والهدف من التعذيب الجسدى هو نفسه الهدف من التعذيب النفسى ، أى الوصول بالفرد إلى مرحلة الانهيار الذى يفقد معه كل قدراته على الصلابة والصمود . ففى هذه الحالة يصبح عقله على استعداد لتقبل أى توجيه من المستجوب بصفته الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتبادل معه أطراف الحديث الذى أصبح بالنسبة له رفاهية لا يستطيع أن يمارسها فى حبسه الانفرادى داخل زنزانته الخانقة الكئيبة .

وتتم عملية الحرمان من الطعام أو الماء أو النوم بحساب دقيق بحيث يظل الفرد على قيد الحياة ، لكنها حياة الموت خير منها بحيث يصل فى النهاية إلى مرحلة السخرية من كل ما حارب من أجله ، بعد أن تفقد كل الأشياء والموجودات معانيها ، وغالباً ما تتحالف الأمراض العضوية مع المحنة النفسية ، فيتحول الوجود كله إلى كابوس لا يستطيع أن يفيق منه ، فالجسد منهك هزيل ، جائع ، لا يحصل على ما يكفيه من النوم برغم أن ليس لديه أعمال يمكن أن يقوم بها وتجهده ، والنفس كسيرة ، ذليلة ، ضائعة ، يائسة ، والروح محطمة ، بائسة جريحة ، وترزح تحت وطأة ليل جاثم على كاهلها وليس له آخر . فكيف لمثل هذا الإنسان أن يرفض أية طلبات أو أسئلة أو أوامر صادرة إليه ؟ لقد تحالف القلق

والجوع والعطش والسهر والخوف على ذهنه ففقد صفاءه وأصبح على شفا الانهيار أو الغرق حتى أعماق سحيقة معتمة ، ولذلك ليس من المستغرب أن يمسك بأول قشة يلقى بها إليه حتى لو كانت بيد أعدائه وسجانيه . فمن الطبيعى أن يفقد الإحساس بالواقع ، ويعجز عن تحديد نسب الأشياء سواء تلك التى فى ذهنه أو التى يمر بها فى محبسه. يكفى أن النوم ، ذلك الحق الطبيعى الذى تحصل عليه كل المخلوقات وليس البشر فحسب ، أصبح أملاً عزيز المنال عنده . فالأسلوب المعمول به فى عمليات غسيل المخ هو إيقاظه فى ساعات غير عادية أو إجباره على الاستيقاظ كلما أراد أن ينام بالإضافة إلى المعاملة الغليظة والخشنة والمذلة التى تصر على تحطيم كبريائه وكيانه .

والاستجواب لا يتم دفعة واحدة ولمدة طويلة ، بل يستمر لفترات قصيرة فى أيام متقطعة ومواعيد غير منتظمة تتراوح بين منتصف النهار ومنتصف الليل، وبأساليب مختلفة ومتنوعة بل وغير متوقعة تتراوح أيضاً بين الخشونة والغلظة، والإغراء والاستهواء ، بين التخويف والتهديد ، والدماثة والترغيب ، بين الوعيد والإنذار ، والوعد والتكريم ... إلخ . وفى كل مرة يمر بطقوس الخروج من الزنزانة والسير فى الدهاليز والممرات المعتمة إلى حجرة المحقق أو غاسل المخ ثم يعود أدراجه مرة أخرى كالميت فى طريقه إلى قبره . وأحياناً يتم الاستجواب فى زنزانته تحت أضواء ساطعة على عينيه ، بل ونافذة إلى عقله الباطن الذى يلفظ فى هذه الحالة كل ما يريد المستجوب أن يعرفه . وبمرور الوقت لا يعرف من عالمه سوى زنزانته وسجانيه ، ويصبح عجينة لينة طيعة قابلة للتشكيل طبقاً للإيحاءات الصادرة إليها والمسلطة عليها ، والتعليمات المطلوب منها تنفيذها على وجه الدقة .

أما أعمال العنف والإرهاب فهى من الوسائل التقليدية والشائعة فى عمليات غسيل المخ ، وتتراوح بين العنف الجسدى والإرهاب النفسى ، بين الضرب والركل والجلد ، والمعاملة الهادئة التى تشبه الهدوء الذى يسبق العاصفة التى تبدو نذرها فى الجو على شكل أخبار تعذيب أحد الزملاء أو قتله بسبب عدم تعاونه .

وفى حالة وجود مجموعة من النزلاء فى زنزانة واحدة يتم إعادة أحدهم بعد تعريضه لكثير من التعذيب الواضح على جسمه ، على طريقة : لقد أعذر من أنذر . وهذه مجرد أمثلة ونماذج من أساليب العنف والتهديدات غير المباشرة التى تضعف مقاومة الذين لم يمروا بالتعذيب الفعلى . ذلك أن التعذيب فى عمليات غسيل المخ مجرد وسيلة إلى غاية تتمثل فى الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات المفيدة والصادقة ، أما إذا أمكن الحصول عليها من غير طريق العنف والإرهاب والتعذيب ، فلا داعى لتضييع الجهد والطاقة والتفكير والوقت فيما لا يجدى ، إلا إذا كان المستجوب مصاباً بالسادية التى تزين له متعة تعذيب الآخرين.

ومن الأساليب الوحشية فى عمليات غسيل المخ . وضع الشخص فى حمام داخل غرفة معدة خصيصاً لذلك ثم يصب عليه الماء ببطء وهو مقيد لا يستطيع الحركة حتى يصل الماء إلى طرف أنفه ويتوقف ، مما يضطره إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه حتى لا يغمر الماء أنفه ويصاب بإسفسكيا الغرق ، ثم يتم تفريغ الغرفة من الماء بعد أن يكون قد أصبح عاجزاً عن مواصلة الوقوف على أطرافه ، ومهدداً بالموت غرقاً ، وهم يريدونه على قيد الحياة ما دام هناك أمل فى الحصول على المعلومات المنشودة منه . ولذلك تتكرر هذه العملية لفترات طويلة حتى ينهار ويستسلم لما يراد منه .

وهناك أسلوب أقل قسوة جسدية من ذلك ، لكن قسوته النفسية لا تقل عنه ، وعرف بأسلوب قطرات الماء الذى يتم به تقييد الضحية ومنعه من الحركة ثم تصب القطرات فوق رأسه على فترات زمنية غير منتظمة ، ويستمر ذلك لساعات طويلة قد تستمر طوال اليوم والليل أيضاً . وهذا الإيقاع غير المنتظم الذى يمزج الرتابة بالانتظار بالتوقع الذى لا يعرف زمن حدوثه ، هو من قبيل التحطيم الهادئ المتأنى لأعصاب المطلوب استجوابه . ذلك أن إيقاع سقوط قطرات الماء يتناقض تماماً مع إيقاع الجسم المستهدف فيحدث نوعاً من الاضطراب النفسى والعصبى الذى يؤدى فى النهاية إلى الانهيار والاستسلام للأوامر الصادرة

إليه . فقد خلق الله الإنسان بإيقاع منتظم بديع مثل إيقاع التنفس ، وضربات القلب ، وحركة الساقين عند المشى ، وانغلاق العينين وفتحهما وكذلك الشفتين ... إلخ ، وأى تشويش على هذا الإيقاع الإنسانى البديع ، هو تشويش على الكيان الإنسانى برمته ، وفى مقدمته العقل بطبيعة الحال .

أما أساليب الإهانة والإذلال وتحطيم الكرامة والكبرياء فلا حصر لها . منها على سبيل المثال فرض نظام قاس على كل حركة من حركات الفرد ، وعدم السماح له بالقيام بأى عمل قبل الحصول على إذن مسبق ، وخاصة فيما يتصل بتناول الطعام أو النوم أو الاغتسال أو قضاء الحاجة . وأحياناً تصل هذه الأساليب إلى ذروة الإذلال عندما يتم الاعتداء على الأعراض فى حضور الآخرين بصفتهم شهود عيان على ذلك ، بحيث لا تكون الفاحشة سراً مكتوماً لا يعرفه سوى الفاعل والمفعول فيه ، حتى يكون الأثر النفسى غائراً إلى أبعد وأقسى حد ، يستوى فى ذلك الاعتداء على أعراض النساء أو أعراض الرجال . ذلك أن ينابيع القسوة والعنف والمهانة والإذلال عندما تتفجر داخل النفس البشرية ؛ يمكن أن تتحول إلى طوفان يجرف فى طريقه كل المثل العليا والقيم الإنسانية التى حارب الإنسان من أجل ترسيخها عبر العصور .

وبالإضافة إلى غسيل المخ الفردى ، هناك غسيل المخ الجماعى ، مثل عقد اجتماعات يحاول فيها الأفراد الذين اجتازوا مراحل متقدمة من غسيل المخ ، حث الأفراد الأقل تقدماً على اللحاق بهم ، حتى يستفيدوا من الامتيازات الجديدة التى فازوا بها ، وتستخدم فى هذه الاجتماعات وسائل متعددة ومختلفة مثل التملق ، والمداهنة والإغراء ، والتكريم ، والتقدير ، أو الإزعاج ، والمضايقة ، والوعيد ، والسب ، والتهديد. فكل الوسائل ، على اختلاف أنواعها ، متاحة ومطلوبة مادامت تؤدى الغرض المطلوب منها ، أى الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات المفيدة والصادقة ، وفى الوقت نفسه تعديل منهج تفكير الشخص وتغيير مساره بناءً على هذه المعلومات ، أى غسيل مخه .

ويغلب غسيل المخ الجماعى على غسيل المخ الفردى عندما يصبح العقل مستعداً لاستيعاب الأفكار والمعتقدات والتوجهات الجديدة . فمثلاً تعقد حلقات الدروس الجماعية التى يتم فيها تلقين هذه الأفكار من خلال محاضرات يقوم بها خبراء مختصون فى علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ والثقافة . وهذا التلقين متبوع بأسئلة ذات صياغة خاصة موجهة إلى الحاضرين لاختبار مدى تقبل كل واحد منهم لما تعلمه واستوعبه ، ومدى اتساقه أو تظاهره بأنه تعلم واستوعب ، وقدرته على استنباط الأهداف والمناهج من المعتقدات الجديدة ، وإدراكه الحقيقى لمدى تطبيقه لها ، وكفره ورفضه لمعتقداته السابقة لدرجة ترحيبه الفعلى بالتشهير بالوالدين والأصدقاء والأقرباء وكل من له صلة سابقة به . وهناك معايير واختبارات تحدد الفوارق بين الصدق والكذب ، بين المصارحة والمرواغة ، ويصعب خداعها والقفز من فوقها .

تلك هى نماذج من العمليات التقليدية التى يلجأ إليها العدو فى تعامله مع بعض الأسرى الذين يريد تحويلهم إلى عملاء يجندهم لأعمال التخريب والعصيان والتمرد على أوضاع بلادهم هم أنفسهم . وهى نفس العمليات التى تلجأ إليها الحكومات الديكتاتورية والنظم الشمولية لإرهاب خصومها ، حتى لو كانوا من أبناء الوطن لأنهم ينادون بالحرية والديمقراطية ويشكلون قلقاً لاستتباب الأمور فيها. وهى كلها عمليات منافية لحقوق الإنسان وشرائع السماء، لكن النفس البشرية الأمارة بالسوء تغرى الكثيرين باستخدامها حتى الآن ، وخاصة فى زمن الحرب .

وقد تلجأ إليها بعض قوات الأمن للحصول على نتائج محددة للتعرف على أوكار المجرمين والإرهابيين بهدف إثارة الفتنة بينهم وإرباك مخططاتهم ، وذلك عملاً بمبدأ « لا يفل الحديد إلا الحديد » .

وعلى الرغم من تعدد التعليمات والنصائح الخاصة بمقاومة عمليات غسيل المخ ، والصمود فى مواجهتها حتى النهاية ، فإن الضعف البشرى كان الهوة

المظلمة التى سقطت فيها هذه التعليمات والنصائح . ذلك أن طاقة الاحتمال البشرى محدودة ، وكان خبراء غسيل المخ حريصين دائماً على تجاوز حدودها بحيث تدين لهم الأمور ويصبح الأسرى طوع بنانهم فى أقصر وقت ممكن . من هذه التعليمات والنصائح ما يحتم على الذى يقع عليه الاستجواب أن يحول انتباهه بعيدا عن المحقق أو الواعظ ، وذلك بأن يركز ذهنه تماماً على مشكلة أخرى مختلفة . كما يجب عليه الاقتصار فى الإجابة على الأسئلة التى تقدم إليه ، شفوياً كانت أم تحريراً ، وعن طريق الدفاع إذا سمحوا له باصطحاب محام . كذلك يفترض فيه عدم المبالاة لما يتعرض له من ضغوط تهدف إلى القضاء على مقاومته وصلابته ، والمحافظة على تماسكه العقلى والفكرى وروحه المعنوية العالية ، وانتهاز أية فرصة سانحة لاختطاف سنة من النوم تساعده على مواصلة الصمود، ومقاومة كل أنواع الإيحاء عند الشعور بسهامه الموجهة إلى عقله ، وبذل كل جهد ممكن لتجنب أى مؤثر إضافى جديد ، وخاصة فى الحالات التى تتفجر فيها انفعالات الغضب والضيق والكبت والخوف والإحساس بالذنب وغير ذلك من الحالات التى يفقد فيها العقل سيطرته على الأمور ويصبح أكثر قابلية واستعداداً لتقبل شتى أنواع الإيحاء .

والإيحاء من أهم أدوات ومناهج غسيل المخ التى استمرت معه وتطورت بتطور علوم النفس والإعلام والدعاية والاجتماع والتربية والتعليم والسياسة والهندسة البشرية ، وهو سلاح ذو حدين بمعنى إمكان استخدامه فى الهدم والتدمير وأيضاً فى البناء والتعمير ، ويمكن أن يكون داخلياً نابعاً من ذات الشخص إلى عقله ، أو خارجياً صادراً عن المجتمع أو السلطة إلى عقله أيضاً ، أو فردياً مقتصراً على فرد بعينه ، أو جماعياً يشتمل عْلى مجموعة أو قطاع معين من البشر . وقد مارس الإنسان الإيحاء منذ بداية وعيه بالعالم والمجتمع الذى يعيش فيه دون أن يقننه فى منظور علمى ، وظلت ممارسته اجتهادية إلى أن تبلور علم النفس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر واتخذ منه أداة من أهم أدواته

فى التشخيص والتحليل والعلاج النفسى ، كما اتخذت منه الأطراف المعنية الأخرى أداة فعالة لغسيل المخ الذى أصبح فى النصف الثانى من القرن العشرين هدفاً محدداً لتغيير السلوك البشرى من خلال أساليب التأقلم والتكيف بما فيها استخدام العقاقير لتهدئة تلاميذ المدارس، ونزلاء السجون ، وتوظيف الكهرباء فى تشكيل الأمزجة ومعالم الشخصية ، إلى جانب الجراحة لتغيير القسمات والملامح، بل واللجوء إلى كاميرات التليفزيون الخفية وأجهزة الكومبيوتر لدراسة سلوكيات الجماهير دون أن تدرى ، ثم وضع البرامج العملية لإعادة صياغة هذه السلوكيات . بل إن العقاقير أصبحت تستخدم الآن للحد من قدرات العقل أو تنشيطها ، وغير ذلك من الآفاق التى بلغتها الهندسة البشرية أو الهندسة الوراثية التى جعلت خبيراً أمريكياً فى العلوم الإنسانية مثل كارل روجرز يقول :

« لقد أصبح بمقدورنا الآن استغلال ما حصلنا عليه من معارف فى السيطرة على البشر بأساليب مستحدثة لم تخطر لهم على بال . فلدينا من الوسائل والأساليب ما يمكننا من سلب إرادة الناس ومكونات شخصياتهم ، ثم تحريكهم إلى ما نريده لهم – كالدمى – حتى دون أن يدركوا ما يجرى لهم » .

وكان الأديبان البريطانيان أولدس هكسلى وجورج أوريل أول من تنبأ بالآفاق التى يمكن أن تبلغها عمليات غسيل المخ فى فرض إرادة السلطات وأفكارها على الجماهير بالقهر والبطش والطغيان والاستبداد دون أن تجد أية مقاومة تذكر، وذلك لسببين ، الأول : أن السلطات تتصرف من موقع القوة وبكل الوسائل بصرف النظر عن حظها من القيم الأخلاقية ، والثانى : أن عقول الجماهير قد غيبت ، وبالتالى فقدت الإرادة والاتجاه الصحيح وأصبحت تحت رحمة العقل السلطوى الذى يمكن أن يوردها موارد التهلكة ، دون أن تملك له دفعاً فى واقع مفروض عليها قسراً . ففى عام ١٩٣٢ أصدر هكسلى روايته «عالم جديد شجاع» التى اتخذت مضمونها مما يدور فى معامل التفريخ البشرية فى ظل ديكتاتورية بالغة التعقيد والشراسة التى تطمس هوية الأفراد ، وتتحكم فى سلوكهم قبل

خروجهم من الأرحام ثم بعد ذلك طوال حياتهم. فلم يعد الأمر قاصراً على الإيحاء أو الإقناع أو الدعاية ، بل دخلت العقاقير فى المجال كى تغير من كيمياء المخ نفسه. وفى عام ١٩٤٩ أصدر جورج أورويل روايته «١٩٨٤» وهو العام الذى اختاره له خياله كنهاية للمطاف الذى سيسود عنده عالم الشمولية الديكتاتورية الغاشمة القادرة على غسل مخ الإنسان تماماً ، وسحق روحه بلا رحمة أو هوادة حتى يتحول إلى مجرد كيان آلى يلبى كل أوامرها دون تفكير ومهما كانت منافية للقيم الإنسانية .

وكان الإيحاء هو الباب الذى فتح على مصراعيه لبلوغ كل هذه الآفاق المرعبة التى تحتاج إلى وعى كل المدافعين عن حقوق الإنسان ويقظتهم وصمودهم فى معركة هى مصيرية للبشرية جمعاء ، وذلك قبل أن يتحول البشر إلى كائنات ممسوخة تعيش حياة ، العدم خير منها، ونظراً لأهمية عنصر الإيحاء الذى يمكن أن يصبح طاقة دفع للإرادة الإنسانية والعقل البشرى ، أو عامل تدمير لهما ، فقد آثرنا أن نلقى الأضواء التحليلية والفاحصة على جوانبه وعناصره وأدواته ومناهجه المتعددة فى الفصل التالى من هذا الكتاب ، حتى يصبح سلاحاً إيجابياً وفعالاً فى أيدينا ، بدلاً من أن يطعننا به الآخرون فى ظهورنا دون أن ندرى .